المُثل والقِيَم العُليا في نهج البلاغة -دراسة تحليلية-

Supreme Moral values in Nahj EL-Balaga -Analytic study-

م.د جعفر علي عاشور [١] Lect. Jaafer Ali Ashoor

د. جواد عودة سبهان [٢] Dr. Jawad Auda Sabhan

الملخص

يعالج هذا البحث المثل والقيم العليا في نهج البلاغة الذي كان وما يزال نبعاً ثرّاً ورافداً غزيراً من روافد التراث العربي والإسلامي، فهو نافذة لأفكارنا وثقافتنا المكنوزة، تراث ما أجلّه قدراً، وما أعظمه سفراً. الأمر الذي كان مدعاة لأن ندرس تلك القيم التي تستند إلى اساس معرفي نابع من القرآن والسنة النبوية، والساعية إلى إصلاح الفرد والمجتمع، وهو جزء مما أسفرت عنه نتائج هذا البحث.

Abstract

This research deals with the values and ideals in "Peak of Eloquence" which is considered an abundant tributary of Islamic and Arabic heritage. It is an approach to our thought and culture; It is a highly appreciated heritage; It is an immortal book – and that is why we study such values which are based on epistemological ground stemming from Qua'ran and phrophetic Sunnah trying to reform the individual and society.

That is part of the findings which the research reached to.

١- جامعة اهل البيت -عليهم السلام-/ كلية الآداب.

٢- المديرية العامة لتربية كربلاء المقدسة.

المقدمة

يُشير مفهوم القيمة إلى كل صفة ذات أهمية لاعتبارات اجتماعية أو اخلاقية، أو نفسية، أو جمالية. فالقيم هي تصور عام مجرد للسلوك، يشعر أعضاء الجماعة الاجتماعية نحوه بارتباط انفعالي شديد، ويتيح لهم مستوى الحكم على الافعال والاهداف الخاصة. وتتصف القيم بصفة الجماعية في التبني، وتمثل الموجهات العامة للسلوك، بمعنى آخر أن مجموعة القيم التي يدين بها شخص أو جماعة هي التي تحركه نحو السلوك أو الفعل، وتدفعه نحو العمل بطريقة معينة، ويتخذها مرجعاً له في الحكم بأن سلوكه مرغوب أو غير مرغوب فيه عند الجماعة أو المجتمع. فهي تشكل منظومة ثقافية اخلاقية ترشد الأفراد وتُحدد سلوكياتهم، وتوجه أحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه من أشكال السلوك، في إطار ما يضعه المجتمع من قواعد وأسس ومعايير وشروط يستمدها من مصادر مختلفة، دينية وثقافية وبيئية واجتماعية[٣]، ومن ذلك ما يتصل بالمثل[٤] والقيم العُليا وهي في (نهج البلاغة) قسم من فلسفة الإمام علي -عليه السلام- الاجتماعية القائمة على الدين الذي ينظر على أساسه إلى الأحوال الخاصة والعامة، إلى كل ما يرتبط بوجدانات الناس ونزعاتهم وحياتهم الداخلية، وإلى كل ما يتصل بالعلاقات العامة. وكان لا بدّ أن تُبنى عليه قيم الإنسان[٥]. وكان سبيله في غرسها وزرعها في عقول الأجيال واستمراريتها، هو العملة التربوية التي تنقل هذه المثل والقيم العليا إلى الأجيال، ولم يكن هذا النقل عشوائياً في أيّ يوم من الأيام، بل كان وما يزال وسيبقى منظماً مرسوماً مقنناً ينتقل للأجيال اللاحقة بنظام وبخطط ثابتة يرضى عنها المجتمع بما فيه من نظم وقيم وأنظمة وحكم. وقد عُرف عن الامام علي -عليه السلام- اطلاعه الواسع وعلمه الغزير و(إن علياً لمن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان ومكان) [٦].

ومُثل وقيمه تفصح بدلائل شخصية الامام علي -عليه السلام-، حتى لكأن معانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه بالذات تقوده عقيدته إلى الحرص الشديد عليها، يمارسها ويدعو إلى ممارستها بيقين لا يتزعزع، وهو لا يعرف بذلك هوادة ولا تسامحاً. ويقوده إيمانه الحيّ إلى الاستقامة لا تعرف التواءً ولا عوجاً، بل تمضي في سبيل الحق والعدل والواجب من غير مراعاة للخواطر ولا محاباة للوجوه، وهو مثلُ أعلى في الأخلاق والنزاهة والتجرّد، لذا أردنا في بحثنا هذا أن نقف على المثل والقيم العليا التي رسمها الإمام -عليه السلام- للمجتمع حتى ينعم بالأمن والأمان بين أفراده، ويزرع فيما بينهم المحبة والسلام والمودة، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف قسم البحث على أربعة مباحث، وهي:

المبحث الأول: القيم الروحية

المبحث الثاني: القيم الانسانية

المبحث الثالث: القيم الأخلاقية

المبحث الرابع: قيم روحية وإنسانية وأخلاقية تجري مجرى الحكم

٣- ينظر: دور الاعلام في ترسيخ القيم الاجتماعية، مأمون الجنان، مجلة المعرفة: ٢٨٥.

٤- (الغايات التي نسعى لتحقيقها، أو أهداف ينبغي التوصل إليها، أو توازن نسعى إلى تحقيقه). قضايا علم الأخلاق، قباري محمد اسماعيل: ١٣٢.

٥- ينظر: الامام علي -عليه السلام- صوت العدالة الإنسانية، جورج جُرداق: ١٤٦- ١٤٧.

٦- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، كلمة ميخائيل نعيمة: ٨٠٢.

المبحث الأول: القيم الروحية

نهج البلاغة تراث موسوعي ينفتح على قضايا الانسان كلها في حياته الفردية والاجتماعية، وهو مدرسة لتقويم النفس، وتقوية البدن، وإسباغ الراحة والصحة النفسية والجسمية للإنسان، فضلاً عما له من تأثيرات روحية وفيوضات ربانية، فكان صاحبه يسبق العلم بالإشارة إلى قيمه الروحية، من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ودعاء، وزهد، وغيرها من القيم، ليرفع النفس البشرية فوق المادة لتحيا. وهذا يوحي بأن القيم الروحية هي: (نظرة ثاقبة إلى ما وراء الحياة المادية –إلى الملأ الأعلى– عالم المبادئ السامية والنظامات الروحية) [٧]، فإن ذلك يؤدي في النهاية إلى ترقية الانسان حتى يـ صل إلى درجة (التقوى) حيث الغاية النهائية، تلك الغاية التي تتوق إليها نفسه وتهفو إليها روحه، ويبدو أن الهدف الغائي للإمام من هذه القيم هو ايقاظ الناس من سبات الغفلة والغرور بالتقرب إلى الله، لأن في حياة الفرد جانباً مادياً وجانباً روحياً معنوياً، وإذا كانت حياة الفرد المادية تتقوم بالوجود المادي العيني، فإن حياة الروح تقوم بالقيم الروحية، لذا أغنى الإمام علي –عليه السلام– بترسيخ هذه القيم عن طريق منهجه القيمي الروحي، بقوله: ((إنّ أفضل ما توسَّل به المتوسلون إلى الله سُبحانه: الإيمانُ به وبرسُوله، والجهادُ في سبيله فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الاخلاص، فإنها الفطرةُ، وإقامُ الصّلاة فإنها الملّة، وإيتاء الزّكاة فإنها فريضةُ واجبةُ، وصومُ شهر رمضان فإنه جُنة من العقاب، وحج البيت واعتمارهُ فإنهما ينفيان الفقر ويرخصان الذنب...))[٨].

يُفاد من هذا النص أن التدرج أمر أساسي يدخل في صلب النظام القيمي الروحي للإمام، لذا اعتمد فكرة التدرج في العمل الروحي، تبعاً لقوة الإيمان عند الناس، فقدم الإيمان بوصفه قيمة روحية عُليا، وهو أصل الأصول كلها، ويرى الباحثان أن التقديم بهذه الطريقة جرى بقصدية باعثها توظف الدلالة توظيفاً قيمياً روحياً. ويأتي الجهادُ في المرتبة الثانية، كونه قيمة روحية عُليا يهدف إلى رفع شأن الاسلام بدلالة ما ذكره الإمام –عليه السلام– بقوله: ((فإنه ذروة الاسلام))، وكأن الإمام –عليه السلام– يومئ إلى أنه لولا الجهاد ما ترفع للإسلام راية، ولا كان له عين وأثر، وتكتمل صورة العناية بعقيدة التوحيد ضمن القيم الروحية عند الإمام –عليه السلام– بتأكيده مبدأ قيمة التوحيد المتمثلة بكلمة الإخلاص. وليس المراد بكلمة الاخلاص النطق بلا إله إلاّ الله، وإنما المراد ما تمليه من التعبد له، والتوكل عليه وحده، أما الفطرة فهي إشارة إلى أن الإنسان بفطرته وطبيعته يستجيب لعقيدة التوحيد، بل يستجيب لكل قيمة من القيم الروحية التي هي من مبادئ الإسلام[٩]. و ارتشف الإمام –عليه السلام– في توظيف مفردة (الصلاة) قيمةً روحيةً عليا مخصصاً إياها بموضوعة الـ صلة بين قلب العبد ونور الله، وهي معراج المؤمن إلى عرش الله، وهي رمز تعبد الإنسان لله، وتسليمه لأمره في حقول حياته كافة، وهذا يكشف دقة اختيار الامام لقيمة الصلاة ووضعها في مكانها الذي يحقق التعانق بأبعادها الدلالية بوصفها الطريقة والشريعة والدين. وما يُعضد هذه القيمة الروحية (الزّكاة) التي تأتي في المرتبة السادسة، وهي أشبه بالتنظيم الاقتصادي للمجتمع، والعامل الأول في محو جذور الفقر،

٧– رسالة الأديب إلى الحياة العربية، مي زيادة: ١٥

٨– نهج البلاغة: ١/١٠٩– ٢٤٢، إنه –عليه السلام– قد أفاد وأخذ من قول الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– في حديثه المبارك: (بُني الإسلام على خمس: شهادة ان لا إله إلا الله، وان محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزّكاة، والحج، وصوم رمضان). ينظر: صحيح البخاري: ٤٠٤/٨، ورقمه ٤٥١٥.

٩– ينظر: في ظلال نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد جواد مغنية: ١٠٥/٢.

وهذا ما يثبت عمق اندماج هذه القيمة، فأوردها الإمام –عليه السلام– لأنها تمثل وجهاً مهماً من وجوه النشاط الاقتصادي الإسلامي في كفتي الميزانية العامة لها أهدافها ونظمها الخاصة في الجباية والصرف، كانت وما تزال صفحة مشرقة من صفحات هذا النظام الإلهي العظيم، الذي شرعه الله عز وجل لعباده، لتقوية روابطهم الاجتماعية وإقامتها على أساس متين من الرأفة والرحمة والتكافل المادي والمعنوي، وبناء مجتمعاتهم بناءً صالحاً محكماً متماسكاً.

وقراءة ثانية للمقطع (وصوم شهر رمضان) تمكن القارئ المشارك من رصد القيمة الروحية (الصيام). تلك القيمة التي يمكن كشف تجلياتها الدلالية كونه من اهم العبادات وركناً من أركان الدين، ووجوبه يعد من الضروريات، فضلاً عن انه وقاية من أدواء الروح والقلب والبدن، فمنافعه تفوق الإحصاء، و أن له تأثيراً عجيباً فيه حفظ الصحة، ولا سيما إذا كان باعتدال، وقصد في أفضل أوقاته شرعاً، وحاجة البدن اليه طبعاً، ثم أن فيه من راحة القوى وأعضاء ما يحفظ عليها قواها، وفيه خاصية تقتضي إثارة وهو انتصار الإنسان على نفسه، وتمرينه على كبح الشهوات والأهواء، فإلى جانب طاعته عز وجل نجده تربية روحية وخلقية حيث الغاية النهائية للصوم.

في حين نرصد قيمة روحية (وحج البيت)، إذ إن هذه القيمة تهدف إلى قوة المسلمين ووحدتهم وعظمتهم وكثرتهم، أي جانب وحدة الجنس البشري، حين يرى الأسود والأبيض، والغني والفقير، والمرأة والرجل، والكبير والصغير، كلهم واقف يلبي، وكلهم يرتدي زياً موحداً أبيضاً نقياً رمزاً لطلب النقاء الروحي، ونبذاً لأدران المادة التي علقت بأجسامهم طوال أيام عمرهم. فتبعث في نفسه فكرة ازالة الفوارق ووحدة الجنس البشري الذي دعا الله إليه من دون تمييز، ومن ثم كشف هذه القيمة الروحية عن مفاتيح لدلالة مركزية واحدة هي (طاعة الله) إلى جانب نفي الفقر وغسل الذنب. تبين في موضوعه التحليل السابقة الترابط الحاصل المتحقق، والعلاقة المتواشجة المتبادلة بين موضوعة القيم ومفرداتها، وما يثانه من تشظيات دلالية على نسيج بنية القيم كُلها، ويكشف هنا أثر موضوعة القيم من حيث اختيار المفردات[١٠] وانتقائها، فيأتي بها مخصوصة في صميم الجانب الروحي.

إذ إن نجاح الالفاظ يعود في جزء كبير منه إلى قدرتها التي تولد المواقف المطلوبة، والافصاح عن المعاني الدقيقة التي تجول في نفس الباث وداخل وعيه، فليست الألفاظ (هدفاً لذاتها وانما هي وسيلة نتخذها للتعبير عن الدلالات والخواطر التي تجول في أذهاننا)[١١].

وعليه فالألفاظ مهمة في بناء العمل الفني بل هو الركن الرئيس لكل عمل أدبي، ومن أقوى العوامل التي تتوقف عليها قيمته الجمالية والأداء الفني أساسه الدقة في اختيار اللفظة ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناها[١٢]، فالأديب المرهف هو الذي يوفر الألفاظ جواً من اللغة والالتئام فيما بينها[١٣].

وعليه فإن الإمام علي –عليه السلام– يجند لقيمه الروحية السياق الدقيق بما تكونه من مفردات متناسبة ومتجاوبة خاصة بموضوعته التي لا تخرج عن الدعوة إلى فرائض الأسلام وأركانه في إثارة الجوانب الروحية

١٠– وقد عني النقاد العرب بالألفاظ وأكدوها، لأن المعنى الشريف عندهم مرتبط باللفظ الشريف. ينظر البيان والتبيين: ١٣٦/١.
١١– طرق تنمية الالفاظ، د. إبراهيم أنيس: ٥.
١٢– ينظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، د. عبد الكريم بلبع: ٢١٦.
١٣– ينظر: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، د. إبراهيم سلامة: ٢٦٦.

الكامنة في ذات الانسان، من هنا نلحظ أن مقطع القيم محشّد بالجمل المقرونة بـــ (الفاء) معترضة، والقصد التعليل، اذ تكرر ذكرها ست مرات عند ابتداء كل جملة من جمل المقطع، إذ يتوزع على ست فقرات، كل فقرة تشكل وحدة فكرية تتمتع بإيقاع نغمي مستقل (خاص) تختلف بإيقاعها عن الفقرة التي تليها، وهذا التنوع الايقاعي بالوقت الذي يكسر فيه رتابة التكرار فإنه يأخذ دور المحفز الذهني عند المتلقي للالتفاف إلى المضمون القيمي (الروحي) للفقرة المقروءة والتهيؤ للقادم من القيم.

وتعد الفاء من الأصوات الرخوة، المهموسة المرققة، ومن معانيها الرقة والفرح والانفراج والتوسع والابتعاد والانتشار، وهذه الصفات والخصائص التي تجتمع تتناسب والقيم الروحية بتفاصيلها المتنوعة.

ومن القيم الروحية الأخرى (الدعاء، والزهد، والتقوى).

أما الدعاء فيؤدي دوراً مهماً في تربية النفس البشرية وسوقها نحو مدارج السمو والرفعة والكمال، وهي الحقائق التي قد يغفلها أغلب الداعين، ناهيك عما تشتمل عليه بعض الأدعية من فضائل روحية وأخلاقية وإنسانية، ومعارف ربانية تسبغ بها النفس فتمنحها الهدوء والسكينة، فالنفس حية بالدعاء، نابضة بالورع والتقوى، ومن هنا يرى القرآن أن قيمة الإنسان تكمن في دعائه وتضرعه إلى الله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾(١٤)، وكيف لا يكون الدعاء بهذه الأهمية وهو الإنسان إلى معرفة الله وعشق المعبود بغية نيل رحمته والظفر بعفوه ومغفرته بوساطة التوسل بأسمائه الحسنى، من جانب آخر فإنه يكشف لنا عن قيمه الروحية التهذيبية التي تتحقق بعض صورها عن طريق إعمام الدعاء ذلك الإعمام الذي يدفع بالنفس الانسانية إلى الانفلات من دائرة الذات الضيقة والذوبان في عالم الملكوت الإلهي وإن الدعاء لا يصدر إلا لباعث الإيمان بالله والتسليم لأمره(١٥)، وتأسيساً على ذلك، جاءت أدعية الامام علي –عليه السلام– منطلقة من قناعته بالمهمة العبادية التي أوكلها الله تعالى لبني البشر: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١٦)، منتهجاً فيها لغة الشريعة الإسلامية، فضلاً عن أنها إمارات أسلوبية مائزة في ميدان العلم والبيان، ولنا أن نجد بعض تجلياتها في قوله: (اللهم، داحي المدحُوّات، وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطرتها، شقيتها وسعيدها، إجعل شرائف صلواتك ونومي بركاتك، على محمّد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلف...)(١٧). نلحظ أن مقطع الدعاء ومفردته الافتتاحية (اللهم) لها علاقة بنفسية الإمام علي –عليه السلام– حال دعائه الله تعالى، أن يرفع من شأن محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– عنده مع علمه بأن لرسول الله عند الله ما لا يحلم به ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذن فلا معنى لهذا الدعاء إلا العبادة والتقرب إلى الله بتعظيم حبيبه وتقديسه(١٨)، متزامنة مع الموضوعة التي حملت تكثيف المناسبة كُلها، وهذا الاستهلال مولود في رحم الاستهلال القرآني عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾(١٩)، وقوله

١٤– سورة الفرقان، الآية:٧٧.
١٥– ينظر: في ظلال الصحيفة السجادية، محمد جواد مغنية: ٤٢.
١٦– سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
١٧– نهج البلاغة: ١، والمدحوات: داحي: باسط، والمدحوات: الأرضون، لسان العرب (دحا): ٢٩٧/٤، والمسموكات: السموات، لسان العرب (مسك): ١٠٢/١٣.
١٨– ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ٢٣٦.
١٩– سورة آل عمران، الآية:٢٦.

تعالى: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢٠]، وهذا لم يكن اعتباطاً، وانما جرى بقصدية تامة جعلت منه دالاً أسلوبياً، فقد جاء مرتبطاً فكرياً وروحياً مع طبعة الدعاء قيمة روحية.

ويكرر الإمام علي –عليه السلام– النداء (اللّهم): ((اللّهم اغفر لي ما أنت أعلم به منّي، فإن عُدتُ فعُد عليّ بالمغفرة، اللّهم اغفر لي ما وايت من نفسي ولم نجد له وفاءً عندي، اللّهم اغفر لي مما تقربت به إليك بلساني ثُم خالفه قلبي، اللّهم اغفر لي رمزات الألحاظ...))[٢١].

والمتفحص للنص يرى أن الإمام علي –عليه السلام– قد مهّد لفضاء قيمي روحي يتسع تدريجياً بتكرير النداء (اللّهم) وإن هذا الاتساع يدفع المتلقي بالتواصل الروحي مع الله عز وجل، ويمهد لحمل المتلقي لا شعورياً على السؤال، بتكرير لفظة (اللّهم) مقرونة بطلب ذاتي مختفية في نفس الداعي وإن لم يصرح به، و أعطى الإمام –عليه السلام– لأسلوب الأمر قيمة ووظيفة معنوية ودلالية يُزداد عليها القيمة اللغوية التي أسهمت في تحديد ملامح النص. ويتضح هذا بوساطة وجهة شكلت خ صي صة أسلوبية تتجلى بالتركيز على استعمال الفعل (اغفر) بصيغة أمرية، فتراه قد ورد في الدعاء أربع مرات، مقروناً بـ (اللّهم) اعتمده الإمام –عليه السلام– موظفاً الدلالة المعنوية ليؤكد حقيقة هي الإقرار بالعجز، فلا يمكن للإنسان تحقيق كينونته بمشيئته وإرادته على وفق ما يريد دون اللجوء والرجوع إلى الإعانة الإلهية.

إن أسلوب التوكيد من الظواهر اللغوية والأسلوبية، قد عرفته العرب قديماً قال ابن فارس: ((ومن سنن العرب التكرار والإعادة إرادة الابلا غ بحسب العناية بالأمر))[٢٢]، فضلاً عن انه يشكل قيمة موسيقية مهمة ووسيلة من وسائل التنويع النغمي في النص، ويسهم في تأكيد المعنى أو الـصورة وتقريرها، فهو في حقيقته إلحاح على جهة مهمة في العبارة، ليكشف عن اهتمام المتكلم بها وشدة انتباه المتلقي، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمية، ولهذا يرتبط بالحالة الشعورية للانسان كما يكشف عما يشغل الاديب من فكرة تأخذه وتتسلط عليه.

ومن مظاهر الدعاء الاخرى دعاؤه: ((اللهم صُن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار فأسترزق طالبي رزقك واستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وافتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله وليّ الإعطاء والمنع))[٢٣].

وظف الإمام –عليه السلام– تقابلاً لطيفاً وضداً جميلاً، إذ قابل بين (اليسار –الإقتار)، اي بين الغنى والفقر، و (الحمد، والذم) و(الإعطاء– والمنع)، فجسد ضدا التقابل تشكيلاً قيمياً روحياً في صيانة الوجه وحفظه من التعرض للسؤال، معضداً ومستنداً إلى فعل الأمر (صُنْ)، إذ جاء الفعل بصيغة خطاب الإفراد لأن الامام –عليه السلام– لا يسترزق ولا يستعطف مخلوقاً على الاطلاق، طالماً من وراء ذلك الله عز وجل، فهو وليّ الإعطاء والمنع.

فالمقابلة لم تكن اسلوباً زخرفياً، زائداً، بل جاءت لاغراض دلالية، منسجمة مع السياق الن صي، ومتوافقة مع مقصده –عليه السلام– ومعبرة عن معانيه.

٢٠– سورة الزمر: ٤٦.
٢١– نهج البلاغة: ١/١٥٥.
٢٢– الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس: ١٧٧.
٢٣– نهج البلاغة: ٢/٤٦٩.

وأما الزهد فإنه من المفاهيم التي تعرضت لها الأديان الإلهية، على أنه يعني عدم التعلق بماديات الدنيا وحطامها، وبالطبع لا يُراد بالزهد حرمان الانسان من المال والثروة والمقام والإمكانات، وإنما يراد به عدم الانقياد والاستسلام لهذه العناصر والوقوع في أسرها، بل ينبغي له أن يكون أميراً عليها.

ومن هنا أشار الإمام –عليه السلام– إلى حقيقة الزهد قيمة روحية عُليا فقال: ((أيُها النّاس، الزّهادةُ قِصر الأمل، والشُّكر عند النعم، والورع عند المحارم))[٢٤]. وقد حدد الإمام –عليه السلام– الزهد ثلاثة أوصاف: الأول (قِصرُ الأمل): وهو أن يحسب الانسان لنزول الموت الذي ينتقل به إلى حياة روحية خالصة، أنحزر علماً من الحياة التي كان يحياها بجسده، ويستعد له بالعمل الصالح.

الثاني (الشكرُ عند النّعم): قيمةً روحيةً تتمثل بالطاعة، وبالفعل لا بالقول، والاعتراف بأنها من الله والتصرف فيها على وفق ما شرّع.

الثالث (الوَرَع عند المحارم): الورع كقيمة روحية عليا تتمثل بالكف عن المحرمات، والوقوف عند الشبهات.

وهناك تفسير آخر للزهد أورده الامام –عليه السلام– في قصار كلماته، قد يبدو مختلفاً مع هذا التفسير، إلا أنه يتفق معه في المعنى قيمةً روحيةً عليا، إذ قال –عليه السلام–: ((الزُهد كُله بين كلمتين من القُرآن، قال الله سُبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢٥]، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزّهد بطرفيه))[٢٦]. فالزهد من وجهة نظر الامام –عليه السلام– هو الرضا بالميسور، فلا تحزنوا لمفقود، ولا تفرحوا بموجود.

والمستشف من النص المقدم أن الاقتباس حقق عدولاً أسلوبياً شكّل دعامة من دعائم تمييز الأسلوب بخلقه فضاء ذهنياً وتصورياً أوسع ما يحققه النص لو لم يكن الاقتباس بمعنى أن الامام –عليه السلام– بهذا الاقتباس وسّع فضاء النص واضفى عليه شيئاً من الإمتداد القيمي وبما يُمكن المتلقي من استشعار البينية من القرآن الكريم، فجاء الاقتباس أبلغ بياناً وأعمق دلالة.

وهذا ما يطلق عليه بالقرآنية المباشرة المحورة غير المحورية[٢٧]، وهو ان يعمد الأديب إلى النص الأول (القرآني) فيأتي بتراكيبه ولكن بتوظيف جديد اي دلالة اخرى، وهي مرحلة اعلى في التوظيف من القرآنية المباشرة المحورة المحورية؛ اما في هذه القرآنية فإن الأمر يتوقف على درجة واحدة وهي النص دون المحورية وذلك لأن الاستسلام للنص في الحالة الأولى كان على درجتين وهي النص والدلالة وهي تقوم على مجاراة النص الأدبي للنص القرآني ومن ثم الانحراف إلى مقصدية مختلفة.

ولنا بعد ذلك أن نشير إلى التقوى التي تُعد قيمة روحية عُليا تهدف إلى طاعة الله عز وجل بمعنى أن يتقي الانسان ما يغضب ربه وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره، فالتقوى في أصل معناها جعل النفس في وقاية، ولا تجعل النفس في وقاية إلا بالنسبة لما يخاف، فخوف الله أصلها، والخوف يستدعي العلم بالمخوف، ومن هنا أم كان الذي يعلم الله هو الذي يخشاه، أم وكأن الذي يخشاه هو الذي يتقيه. لهذا

٢٤– نهج البلاغة: ١٥٨/١، والزّهادة: تعني عدم الإغتناء بزخارف الدّنيا.
٢٥– سورة الحديد، الآية: ٢٣.
٢٦– نهج البلاغة: ٧٢٤/٤.
٢٧– ينظر: تأصيل النص، د. مشتاق عباس معن: ١٨٣، والقرآنية في شعر الرواد، د. احسان الشيخ حاجم: ٤٥

عني الامام –عليه السلام– بتلك القيمة الروحية، فوجه النفوس إليها بقوله: ((الحمدُ لله الفاشي في الخلق حمدهُ، والغالب جُندهُ، والمتعالي حدّهُ... أوصيكم –عباد الله– بتقوى الله فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم، وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم، الحرزُ والجُنة، وفي غدٍ الطريق إلى الجنة، مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ))[٢٨].

نجد الإمام –عليه السلام– يستهل كلامه بأسلوب (الحمد لله)، للتعريف بقيمة (التقوى)، وهو أسلوب لا يخرج عن مرجعيته القرآنية في استهلال السُّور وفواتحها بـ (الحمدُ لله)[٢٩]، إن مسألة الأخذ من القرآن الكريم هي ممارسة كبيرة عريقة، تمتد إلى جذور العصور الاسلامية الأولى، فضلاً عن كون المأخوذ منه نصاً مقدساً ذا أثر كبير في نفسية المرسل والمتلقي[٣٠]، ((فنظم القرآن جنس متين، واسلوب متخصص، ونبيل عن النظير متخلص))[٣١]. لذا كان الامام –عليه السلام– يبدأ بالتحميد لله والثناء عليه اقتداءً بكتاب الله تعالى، وعملاً بما اشتهر عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((كُلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع))[٣٢]، بمعنى مقطوع البركة.

من هنا أراد الامام –عليه السلام– بـ (الحمدُ لله الفاشي في الخلق حمده) ان يبين بأن الخلائق جميعها تسبحُ بحمد الله بلسان المقال أو بلسان الحال، وهذا ما جعل (الحمد لله)، مختصاً به، لهذا أورد الامام –عليه السلام–: (الحمدُ معرفة في جملة اسمية ليدلّ على ثبات الحمدُ لله)[٣٣]، ثم قال –عليه السلام–: ((أوصيكم –عباد الله– بتقوى الله))، كون التقوى قيمة روحية موجبة تهدف إلى طاعة الله، و يومئ الامام –عليه السلام–: (فإنها حق الله عليكم). وهي فرض وحتم على العبد.

ينتقل الامام –عليه السلام– لبيان حق العباد فيقرر قائلاً: ((والموجبة على الله حقكم))، يريد أن التقوى جعلها الله سبباً لاستحقاق ثوابه، ومعينة على رضائه، فالطاعة حق لله على عبده، والثواب عليها حق للعبد على ربه، والفرق ان طاعة العبد لله فرض بحكم العقل، أما الثواب على الطاعة منه تعالى فقد فرضها هو على نفسه:﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٣٤]. ثم ينتقل إلى بيان الاستعانة: ((وأن تستعينوا عليها بالله)). اذا ما أردنا طاعة الله عز وجل فعلينا طلب العون عليها منه تعالى، يواصل الامام –عليه السلام– بعد ذلك بيان كيفية الاستعانة بها على الله: (وتستعينوا بها على الله)، اي على العافية والخلاص من عذاب الله، اذ لا سبيل إلى النجاة منه إلا بالطاعة، ثم يستمر الامام في بيان التقوى (فإن التقوى في اليوم الحرز والجُنة، وفي غد الطريق إلى الجنة). نلحظ هنا أن المقطع اشتمل على صورة كنائية اسهمت في بلورة الرؤية القيمية للتقوى المراد تبليغها. فإن الإمام –عليه السلام– كنى عن الدنيا باليوم، وكنى عن الآخرة بالغد. ويبدو هنا أن تقديم المعنى الكنائي بهذه الطريقة جرى بقصدية باعثها توظيف الدلالة توظيفاً ام قيمياً روحياً في الدنيا والآخرة، فالتوظيف القيمي يتحقق بحمل المتلقي على التفكير بعاقبة التقوى وما تؤول اليه

٢٨– نهج البلاغة: ٢/٣٩٠– ٣٩١.
٢٩– ينظر: سورة الحمد (الفاتحة)، والانعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.
٣٠– تأصيل النص: ١٣٩.
٣١– اعجاز القرآن، الباقلاني: ٣٠٥.
٣٢– ينظر: الحبل المتين: الشيخ البهائي العاملي (ت ١٠٣١هـ): ٣٣، وفواتح سور القرآن: د. حسين نصّار: ٥.
٣٣– قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية، د. كريم حسين الخالدي: ١٢٧.
٣٤– سورة الانعام، الآية: ٥٤.

حال الانسان دنيا وآخرة، فإن (مسلكها واضح)، وهي لا شك إشارة إلى الاستقامة، والعلم والعمل النافع للأفراد والجماعة و(سالكها رابح)، واي شيء اكثر ربحاً للمرء من أثر نبيل ينتفع به الناس؟ ثم يستمر الامام –عليه السلام– مُبيناً مستودعها (ومستودعها حافظ، ومستودع التقوى هو الذي تكون التقوى وديعة عنده وهو الله فأن من يتقي الله فقد جعل تقواه وديعة عند الله، وهو سبحانه يحفظها له، ويكافئه عليها بأحسن منها)[٣٥].

وتجدر الاشارة إلى ان الكناية اجراء اسلوبي ناجح يظهر جانباً من الدلالة في النص، مما يستدعي ايلاءها عناية كبيرة من خلال استثمار الامكانات التي توفرها آليات النص الظاهري الم صرح به على سطح النص لغرض الاحالة إلى الكشف عن الداخل المكنون للنص.

فجاءت هذه الـ صور تنسجم ومجريات النص، لأنها عملت على تعزيز الانزياح الكنائي ودلالته الانتاجية التي تسعى إلى تمجيد (عاقبة التقوى) وتعظيمها عبر هذا التعبير الكنائي الذي غلف فضاء النص، لغرض اثبات هذه الصفات في نفس المتلقي وذهنه، فيتحسس وقعها وحضورها الفاعل.

وهكذا استطاع الامام –عليه السلام– ان يوظف قيمه الروحية التي يُريدها الإسلام للعلاقة بين أفراد مجتمعه بكل جوانبها؛ لأنها هي أساس بناء مجتمع رصين، ومن طريقها تتكون شخصية الأفراد وتجعلهم ينعمون بحياة سعيدة خالية من كل الاضطرابات النفسية.

المبحث الثاني: القيم الإنسانية[٣٦]:

للقيم الانسانية أثر كبير في حياة الانسان، وفي معالجة القضايا التي تدور حول الانسان الذي يُعد محور المثل والقيم من حيث هو انسان بدون النظر إلى نوعه أو نسله أو لغته، وهذه الانسانية في سموّها وسموقها في كل ما تنادي به من كرامة الانسان وفرضية التكريم له، إنما هو رسالة الأديان، من هنا أدرك الامام علي –عليه السلام– الدور الذي تؤديه القيم الانسانية والآثار التي تترتب عليها، فلم ينس دوره الانساني الذي يقوم به اذ لا يعبر عن نفسه فحسب، وانما يعبر عن اخوانه في الانسانية، لأن الانسان الكامل الذي تسعى الشريعة الاسلامية إلى تكوينه لا يكتمل إلا بالقيم الانسانية التي تجعل من الانسان انساناً راقياً، وتضفي عليه قيمته وشخ صيته[٣٧]، وبهذه النظرة يكون الامام –عليه السلام– قد وسع نطاق الحدود الانسانية البعيدة التي تقف عند حد معين، وذلك تأكيداً لكرامة الجنس البشري بعناصره ومقوماته المادية والأخلاقية والإنسانية كافة، طالما ان للانسان على الانسان حقوقاً كبيرة فوق هذه في طليعتها عقد حبل المودة والألفة بين الناس أفراداً وجماعات، قبائل وشعوباً.

طالما ان الذي يجمعهم أصل واحد وطريق مشترك، وغايات لا تتباعد وهذا ما يحاول البحث بيانه بوساطة القيم الانسانية الآتية: (الرحمة، والمحبة، واللطف، والأخاء، والرفق، واللين، والمسأواة، والحرية، والصداقة).

٣٥– ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ٦٦.

٣٦– تعني مجموعة الفضائل، وهي خلاصة الخير والعدل والرحمة والاخوة، والمحبة والمسأواة والرفق والاحساس بألم الانسان، ومثل ذلك من حميد الصفات. ينظر: قيم جديدة، د. سليمان ابراهيم العسكري، مجلة العربي، العدد /١٥٧، ٢٠٠١م، الكويت: ٩.

٣٧– ينظر: علي سيرته الذاتية وفكره الحضاري، عبد الحميد المهاجر: ١/١٧١.

الرحمة: تمثل قيمة انسانية في نفوس الافراد وهي سمة من سمات الانسانية وهي صفة تحيي المجتمع وتنقله من مراتب الحيوانية إلى مراتب الآدمية والانسانية، وقد حث الله عز وجل على الرحمة حتى وصف نفسه بذي الرحمة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[٣٩]، من هنا وجب على العبد ان يحيي في قلبه الرحمة للعباد كلهم، لأنها من صفات الخالق والعبد، واجب عليه ان يتأسى بصفات ربه عز وجل.

لهذا كان الامام علي -عليه السلام- ارحم الحكام بالرعية، من ذلك أنه أوصى مالك الأشتر النخعي في عهده حين ولاه م صر قائلاً: ((واشعر قلبك الرّحمة للرّعية، والمحبّة لهُم، واللّطف بهم، ولا تكُونن عليهم سبُعاً ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق...))[٤٠].

وكل ذلك إشعار منه لنا بأهمية محبة الحاكم لرعيته بأنها ضرورة تماماً كالعدل، فضلاً عن ما في هذه القيم من حنان عميق ومن عطف كثير على الرعية، مما ينزع عن الوالي العبوس والتقطيب، واذا الوالي أخ رحوم عطوف لطيف لا سبُع ضارٍ ولا وجه متجهم. واذا الناس لديه آمنون مطمئنون، فإذا امتلأ قلب الوالي بالرحمة كان انصافاً للمظلوم ورحمة للناس.

ويرسخ الامام -عليه السلام- قيمة (الإخاء)، بين الوالي والرعية: ((إما أخ لك في الدين))، وهذا مدعاة لإشاعة أجواء الأخاء في المجتمع، وفيه إحياء لقيمة الانسان: (أليست غايته أن يشدك إلى الآخرين برابطة الأخاء؟ فأذا أوجدت رابطة الإخاء بصفة الانسان وحدها، فما في ذلك إثم)[٤١]، ثم يترقى الامام -عليه السلام- في تربيته للوالي إلى مرتبة أسمى وهي الانسانية: (وصفة الإنسان كافية في نظر الإمام علي، لأن تجعله محترماً محبوباً، مرفوقاً به، معطوفاً عليه، غير مهدور حقّه)[٤٢]، وبذلك يثبت لنا الامام -عليه السلام- أساساً لطبيعة العلاقة بين جميع الناس في عموم الأرض سابقاً الاعلان العالمي لحقوق الانسان بأكثر من ألف سنة ويزيد[٤٣]، و نلمح أن المقطع م صدراً بصيغة الأمر: (أشعر)، المشعرة بأن الداعية ينبغي أن يصدع بتلك القيم، وأن يتخذ منها منهاجاً وغاية، لأن في القيم حياة للمجتمع وإعماراً للأرض بالخير والصلاح. هذا وقد طبعت افعال الأمر في الشاهد (أشعر، ألطف) التركيب بطابع القوة والشدة بطلب من الامام -عليه السلام- إلى الحاكم.

وهكذا يظهر لنا أن الامام علي -عليه السلام- يربي الولاة على حب الرعية وهي الصور التي يريدها الاسلام للعلاقة بين الوالي والرعية بكل جوانبها، اذ قام بتوصيد روح الرحمة والمحبة واللطف في نفس الوالي بوساطة منهجه القيمي التربوي الذي يربي الوالي ويعد روحياً وأنسانياً وأخلاقياً ليبني مجتمعاً صالحاً يسوده الخير والحب والوئام.

٣٨- سورة الكهف، الآية: ٥٨.
٣٩- سورة الاعراف، الآية: ١٢.
٤٠- نهج البلاغة: ٣/٥٧٢.
٤١- الامام علي -عليه السلام- صوت العدالة الانسانية: ١٩٢.
٤٢- م. ن: ١٩٢.
٤٣- ينظر: الإمام علي صوت العدالة الانسانية: ٣٨٩.

ولا يكتفي الامام –عليه السلام– بهذا القدر من التربية، بل حث الوالي على الرفق واللين والمساواة بين الرعية في اللحظة والنظرة، والإشـــارة والتحية معللاً ذلك حتى لا يطمع العظماء في حيف الوالي، ولا ييأس الضُـعفاء من عدله، ذلك كله نجده في قوله –عليه السلام– لعامله: ((وارفق ما كان الرّفق أرفق، واعتزم بالشـدة حين لا تُغني عنك إلا الشّدة، واخفض للرّعية جناحك، وألن لهم جانبك، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا ييأس الضعفاء من عدلك، والسلام))[٤٤]. لقد رتب الامام القيم الانسـانية في هذا المقطع في تسـلسـل هرمي بديع سـلسـلة القيم التي يُبنى عليها الرفق بالرعية مبدأ من الأسـس الرافقة لهيكل الرعية منتهياً بمكملاتها ففصل حدود كل قيمة معللاً إياها، كان الامام –عليه السلام– واعياً تماماً لمكانة هذه القيم فبين ذلك آمراً عامله أنْ ينهج هذا الطريق في تنظيم العلاقة بينه وبين الرعية لينعم كل منهما بحقوقه كاملة وينعم معه المجتمع بحياة طيبة وهذا ما كان يهدف إليه الامام –عليه السلام–.

وعلى أسـاس ما تقدم نلحظ الامام –عليه السلام– في هذا المقطع، يعتمد صـيغة الأمر (أرفقْ – اعتزمْ – اخفضْ – ابسـطْ – ألنْ – آسِ)، التي تقرر دلالة مدى الاسـتجابة التي تتوافق مع القيم الانسـانية التي تتمثل بـ (الرفق – واللين – والمساواة) في حقل دلالي واحد.

إن جماليات اللغة يمكن ان نتلمسـها عبر اسـتعمال الامام –عليه السلام– لها اسـتعمالاً فنياً تراعى فيه متطلبات العملية الادبية فتأخذ اللغة شـكلاً يسـتقل عن سـواه من خلال مجموعة الالفاظ والمعاني والاسلوب الذي تنضوي على ايحاءات مكثفة وتوظيف ايقاعي ينظم حركة الالفاظ داخل الوصية.

ثم ينقلنا الامام –عليه السلام– إلى صـورة تقابلية لطيفة، إذ جسّـد هذا التقابل بين (الرفق، الشـدة)، و(العظماء، الضُعفاء)، و(الحيف، العدل)، تشكلا انسانياً في ايجاد العلاقة الانسانية بين الوالي والرعية، لأن الرعية لا تصلح إلا بصلاح الولاة، فهي بحاجة تامة إلى الراعي ولم يقتصر منهج الامام –عليه السلام– الانساني على الانسان فحسب بل نجد أن: ((دائرة العدل والحق والرحمة تسع في مناطق الامام حتى تشمل أبعد من حياة البشر فتسع الكائنات جميعها من حيوانات ونباتات وجمادات))[٤٥]، اذ يقول: ((اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم))[٤٦]، لذلك نجده من أوائل الذين نادوا بمراعاة حقوق الحيوان والعناية به، فهو سبق بهذه الدعوة جميع المؤسسات العالمية في بريطانيا وفرنسا التي راحت تدعو إلى الرأفة بالحيوان والعطف عليه.

أما المسأواة في القانون فنجده في قوله –عليه السلام–: ((واعلموا ان الناس عندنا أسوة))[٤٧]، منهجاً صريحاً بمساواة الناس جميعاً امام القانون لا يحتمل تأويلاً ولا يعتريه إبهام. والمساواة في القانون هي رأس المساواة في الحقوق.

٤٤– نهج البلاغة: ٣/٥٦٤.
٤٥– المنهج السياسي عند الامام علي –عليه السلام–، عبد الهادي عاصي: ٧.
٤٦– نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ٣ /٥٦٦.
٤٧– نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ١/١٢٩.

و إن الامام يشير إلى المساواة امام القضاء، بوصفها بعضاً من كل، غير انه يخ صص فيتوجه إلى القاضي قائلاً: ((وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد))[٤٨]، مبيناً الآثار الايجابية الكثيرة التي يتجنبها الالتزام بهذه القيمة الانسانية وما ينطوي تحتها من انصاف بين القريب والبعيد.

وأما الـ صداقة فمنظور إليها في كمالها هي: ((الاتحاد بين شخ صين مرتبطين بحب واحترام متساويين متبادلين))[٤٩]، ومن هذا الحد يتجلى بوضوح أن الـ صداقة قيمة انسانية عظيمة تقوم عليها العلاقات الاجتماعية وهي المثل الاعلى للتعاطف والتواصل فيما يتعلق بخير كل واحد من أولئك الذين يرتبطون بإرادة خيّرة اخلاقياً، أما سببها فالمطابقة والانسجام فهي لا تعقد بين اثنين بالـ صادفة، وانما هي جسر وطيد تتطلب إقامته عملاً جاداً موجهاً على كثر من اللين والتسامح والتعاطف والمحبة والصبر والوفاء المقيم المتـ صل، وقد اعتنى الامام علي –عليه السلام– بترسيخ هذه القيم مُبيناً حق الـ صديق على صديقه عن طريق منهجه التعليمي التربوي بقوله: ((إحمل نفسك من أخيك عند صرمه على الـ صلة، وعند صدوده على اللّطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنوّ، وعند شدته على اللين، وعند جُرمه على العذر،، حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك...))[٥٠].

يبين الامام –عليه السلام– أول حق من حقوق الـ صديق أن تلزم نفسك بـ صلة صديقك اذا قطعك، وقد يظن بك الـ صديق التقـ صير في حق من حقوقه، فيقابلك بالـ صد والهجران، وينبغي ان تتجاهل ذلك، ولا تعامله بالمثل وإلا أنهيت الـ صداقة بنفسك، ووضعت لها حداً بيدك حتى ولو كان هو البادئ، ما دام التلاقي ممكناً، فإنك إنْ تجاهلت، وبقيت على عادتك معه من اللطف والمداراة يذهب ما في النفس مع الأيام، وتعود المياه إلى مجراها.

يواصل الامام –عليه السلام– بعد ذلك بيان حقوق الـ صديق فيقول: (وعند جموده على البذل)، اشارة من الامام –عليه السلام– بأن تواسيه بنفسك حتى ولو كان البخل من طبعه، (وعند تباعده على الدّنوّ)، يضعنا الامام –عليه السلام– امام حقيقة قد يهرب منها بعض الاصدقاء المقـ صرين في حقوق اصدقائهم بالتقرب، وإن تباعد الصديق حتى يُفضي الصديق إلى صديقه بأسراره وهمومه، إذ يشعر من أعماقه أنه ينفض عن كاهله أثقاله وأغلاله. وأقوى شيء في الدلالة عن الصداقة أن تكون قريباً من الصديق،(وعند شدته على اللين، وعند جُرمه على العُذر)، يدعو الامام –عليه السلام– إلى التغاضي عن هفوات الـ صديق واحتمالها منه، فإن طلبت صديقاً لا تعاتبه، عشت بلا صديق مدى الحياة.

وجاء الحق السادس حاملاً لـ صورة كنائية، تلك المتخفية في قوله –عليه السلام–: ((حتى كأنك له عبدٌ))، كناية عن حسن المعاملة والتسامح مع الاخوان، لأن الـ صداقة اخوة لا عبودية، ووفاء لا إلجاء، ونرى ان تقديم المعنى الكنائي بهذه الطريقة جرى بقـ صدية باعثها إثارة المتلقي معرفياً بحمله على التأمل، ومن ثم اندماجه لا شعورياً مع النص اندماجاً فكرياً وقيمياً، وتعد الكناية من الاساليب البيانية والمهيمنات الاسلوبية التي يلجأ اليها الاديب لرسم صوره وتأدية معانيه، اذ يقوم بعملية تركيب لغوي ينتقل خلالها

٤٨– م. ن: ٥٩١/٣.
٤٩– دراسات نفسية تربوية اجتماعية، د. عبده علي الجسماني: ٨٣.
٥٠– نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ٥٤٠/٣.

المعنى إلى احد لوازمه، وما يترتب عليه فيذكره عن طريق العدول عن افادة المعنى المراد مباشرة إلى افادته عن طريق لازم من لوازمه، لذا فالكناية من منظور البلاغيين هي ((ان يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيؤمئ به اليه ويجعله دليلاً عليه))[٥١].

إن القيم الانسانية في نهج البلاغة بُنيت على أساس النظرية الاسلامية بوصفها المعين الرئيس الذي يمنح الامام –عليه السلام– على افكاره منها، اذ جاءت منسجمة معها في المبادئ والفروع، بل إن الامام –عليه السلام–استطاع ان يعطي تلك القيم زخماً انسانياً ودافعاً لتطبيقها كونه خليفة.

المبحث الثالث: القيم الأخلاقية[٥٢]

لا شك أن القيم الاخلاقية هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم، ولهذا نجد الأديان قد اعتنت بها منذ عرف الانسان التدين، كما أكد ذلك الرسول الأعظم –صلى الله عليه وآله وسلم– في قولته الشهيرة الخالدة: (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)[٥٣]، وبتعبير آخر فإن الاخلاق مفتاح تزكية النفس كما يشير إلى ذلك الامام علي –عليه السلام– بقوله: (أيها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها)[٥٤]، إنَّ هذا يمثل منهجاً اخلاقياً لتوجيه المجتمع نحو سلوك اخلاقي متزن يمارسه الافراد بغية الوصول إلى حالة من التكامل الاخلاقي، و نرى الباحثين والفلاسفة قد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لـ صالح نفسه، وللمجتمع في جملته، فكما أن الفرد يضيره ويفسد من اعماله أن تكون أفعالاً سيئة، كذلك تفسد المجتمعات بشيوع الأفعال السيئة في أحدها، ولم تبتعد حياة الامام علي بن ابي طالب –عليه السلام– عن الإسلام كونه منهجاً اخلاقياً متكاملاً للحياة، لذلك لا نجد فاصلاً بين الدين والاخلاق في نهج البلاغة، بل هما جزء واحد، وهي جزء من فلسفة الامام علي –عليه السلام– الأخلاقية القائمة على الدين، لأن الواجب الديني والأخلاقي يحتم على الامام علي –عليه السلام– بوصفه رمزاً أساسياً من رموز هذه القيم وفاعلاً في دفع تطبيقها بما يتسم مع الدعوة اليها لبناء قائم على الأسس الاخلاقية في العلاقة بين افراد المجتمع.

ونظراً لأهمية هذه القيم والسعي إلى ترجمتها عملياً فإن الامام علي –عليه السلام– كان يبني بعض آرائه في الاخلاق على رأيه بأن (الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر) وعليه فكل ما أدى إلى الفوز في الآخرة خليق بالأنسان عمله، وانطلاقاً من هذه الفكرة التي تشكل أساساً للخلفيات الروحية للأخلاق من جهة، والتي تعد من جهة اخرى قاعدة لسائر الفضائل، لذلك لم تكن القيم الاخلاقية في نهج البلاغة ابتداعاً من دون نسق سابق عليه يرتوي من معينه، بل جاء نتيجة للتفاعل بين الشريعة الاسلامية وبين مبادئ الامام –عليه السلام– وقيمه لفتح منابع مع التأكيد الجوهري لذاته. وليس بعيداً عن هذا الافق المضيء رسالته التي تلقاها مالك الأشتر حين ولاه على مصر، وتعرف بعهد الأشتر قائلاً: (وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة، أو البسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء، وأرع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت فإنه

٥١– دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٦٦.
٥٢– هي مصدر الأفعال الجميلة غير المتكلفة، تهذيب الاخلاق، ابن مسكويه: ١٣٢.
٥٣– بحار الانوار: ٢/٣٤.
٥٤– م. ن: ٦٧/٧٣.

ليس من فرائض الله شـيء... فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسـنّ بعهدك، ولا تختلِن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقيّ...)[٥٥].

وهنا يلفت الامام -عليه السلام- أنظارنا إلى قيمة خلقية علينا تمثلت بـ (الوفاء)، فإذا سبق ان قطعت على نفسـك عهداً فقد صـار وثاقه في عنقك، ولا مناص لك منه إلا بالوفاء، ومن ثم يضـع أيدينا على قيمة خلقية اخرى تمثلت بـــ (الامانة) وهي: (التزام الواجبات الاجتماعية وأداؤها خير أداء)[٥٦]، وهي لا تنحصر في أضيق معانيها وحدودها، اي: في إطار قيام الانسـان بحفظ ما يودع لديه من مال، بل تكون شاملة للقيام بالتكاليف والالتزامات الاجتماعية والأخلاقية جميعها، مثلما أشار إلى ذلك الامام -عليه السلام-، فقال: (وارع ذمتك بالأمانة، وأجعل نفسـك جُنة دون ما اعطيت)، يرى الامام -عليه السلام- أن الأمانة خلق كريم يدل على يقظة ضمير الانسان وإحساسه بالمسؤولية المنوط به، فيتولاها ويوجه الولاة إلى أدائها حتى مع العدو، بل يشدد على من تحدثه نفسه من الولاة بأن يُعطي عهداً مبهماً يحتمل التأويل والتفسير على غير المراد لمخادعة من أُعطي له العهد، وللتملص من الميثاق رغبة في نقضه وعدم التزامه، بل وصل الامام إلى ابعد من ذلك فأكد عظيم الوفاء بالعهد (واجعل نفسـك جُنة دون ما اعطيت)، الوقاية اي: حافظ على ما اعطيت من العهد بروحك، وهذا لا شك أنه تعظيم لاهمية الوفاء بالعهد وأدائه ورفع شأنه. ومن هنا نرى ان توجيه الولاة على انتهاج هذه القيم حظي بعناية خاصـة من الامام، وانه -عليه السلام- في محاولته هذه لم يقصر عنايته على اساليب البيان من استعارة في قوله: ((وان عقدة... عقدة، والبسته منك))، ولم تكن عنايته باللفظ وحده، وانما لجأ إلى اسـاليب عدة- من شرط وامر ونهي وسـجع وقصر- وظفها في هذا المقطع لتظهر احاسيسه ومشاعره بصورة فنية مختلفة كونت بمجموعها شحنات ايحائية وعلامات متميزة في السياقات التركيبية والدلالية والايقاعية للوصية لتؤثر في نفس المتلقي.

ونرى فيه مصداقاً لقوله -عليه السلام-: (واعتصموا بالذمم)[٥٧] و: (ذمتي بما أقول رهينة)[٥٨]، وحين نحلل هذه القيم الأخلاقية نجده يضـع مفهوماً للضـمان والإلتزام، و يمثل الوالي من وجهة نظر الامام -عليه السلام- حارساً، والولاية أمانة، وان اي تجاوز للحقوق من الوالي يُعد خيانة.

ومن القيم الاخلاقية التي يستحسـنها الامام -عليه السلام- (العفو)، والعفو من معاني التقوى، قال تعالى: ﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾[٥٩]. والعفو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الانسـان لأنها لا تصدر إلا من نفسٍ كبيرة راجحة العقل صـبرت على اعتداء الغير، ولما كان الله تعالى عفواً بعباده، فمن الحسـن أن يكون العبد متصفاً بهذه الصفة، لذا نرى الامام -عليه السلام- عفواً، ويدعو إلى العفو: ((وإن أعف فالعفو لي قُربة، وهو لكم حسـنة، فاعفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم..))[٦٠]، هذه الممارسـة العملية من الامام -عليه السلام- بالعفو عن قاتله ما هي إلا رغبته في الجزاء الأكبر، والثواب الأوفر، لأن العفو اقرب للتقوى،

٥٥- نهج البلاغة: ٣/٥٩٢- ٥٩٣.
٥٦- اخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعي: ٧٦.
٥٧- نهج البلاغة: ٤/٦٩٩.
٥٨- م. ن: ١/٦٨.
٥٩- سورة التوبة، الآية: ٢٣٧.
٦٠- نهج البلاغة: ٢/٢٩٨.

والتقوى مثل الامام الأعلى، وكان عفوه هذا حتاً منه للمجتمع، لأنه على يقين من أن هذه القيمة الخلقية (العفو) فيها احياء لقيم الاسلام.

ومن نماذجها الأُخر ايضاً (الصبر)، فالصبر من الفضائل الخلقية، وهو في اللغة معناه حبس النفس عند الجزع، وذلك على ما يقتضيه العقل والشرع، وتختلف اسماؤه باختلاف مواقعه، فحبس النفس عن المصيبة صبر، وعند القتال شجاعة. وعند المحافظة على الحقوق أمانة، وعند الكف عن المحارم ورع)[٦١].

أما في الاصطلاح فهو: (ملكة الثبات والاحتمال التي تهون على صاحبها ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق، وإزالة الباطل، أو احتمال أذى الناس وما يلاقيه من مصائب كالفقر والمرض وفقد عزيز)[٦٢].

وقد استخلص الامام –عليه السلام– من (الصبر) قيمةً خلقيةً عليا تصورات عظيمة عن الحياة، واعطى لوائح خالدة في العبرة والموعظة والتربية ورسم صورة مثالية للسلوك الانساني للفرد والجماعة بمستويات مختلفة من النظر والرؤية على أن حكمة الصبر الأساسية هي: ما دام الصبر ثباتاً، اذن على المرء أن يكون حقيقياً مع نفسه ومع سواه.

ويمكن ان نعثر على مثل هذه المعاني في وصيته للامام الحسن –عليه السلام–: ((وعوّد نفسك الصّبر على المكروه، ونعم الخُلق التصبّر في الحق، وألجئ نفسك في الامور كُلها إلى إلهم...))[٦٣]، يتضح من النص أن التصبر دال على الصبر فعلى الانسان أن يكون صابراً مصابراً عند الشدائد والملمات، فلا تذهله الشدائد وتفقده صوابه وتوازنه، فينهار ويتهاوى وينزلق في المتاهات.

ثم ينتقل بنا السياق إلى توجيه اخلاقي وروحي آخر، فيقول: (وألجئ نفسك في الأمور كُلها إلى إلهك)، ثق بربك، وتوكل عليه بقلب خاضع، وعمل صالح، فإن فعلت كان نصر الله معك أينما كنت ثم بعد ذلك يحاول الامام –عليه السلام– جهده أن يعلمنا حكمة الصبر المتمثلة بالثبات.

ولم يكتف الامام بهذا القدر، بل يمارس بنفسه تطبيق تلك القيمة الخلقية قائلاً: ((فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا))[٦٤]، اذ كشف الامام –عليه السلام– عبر فقرته أن الصبر على هذه الحالة التي وصفها أولى بالعقل من الصولة بلا نصير، لأن: (الصبر من شؤون العقل لا من شؤون الدين، لأنه نتيجة لعملية الموازنة بين ضررين لا مفر من احدهما، يجريها الانسان بنفسه، وليس من شك أن العاقل يختار ما هو أخف وطأة وأقل ضرراً، والدين بدوره يقر العقل على حكمه واختياره)[٦٥]. لهذا كله نقول لولا الصبر قيمةً اخلاقيةً عليا لانهارت نفس الانسان من البلايا التي تنزل عليه، ولأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة.

ومثلما رأى الامام –عليه السلام– التمسك بالصبر فضيلة، فقد رأى ايضاً أن يحض على قيمتي (الوفاء والصدق) وفي ذلك قال: ((أيها الناسُ، إن الوفاء توأم الصدق ولا أعلم جُنةً أوقى منه وما يغدر من علم

٦١– لسان العرب، مادة (صبر): ٤٣٨/٤.
٦٢– روح الدين الاسلامي، عفيف عبد الفتاح طيارة: ١٨٩.
٦٣– نهج البلاغة: ٥٢٨/٣.
٦٤– نهج البلاغة: ٥١/١– ٥٢.
٦٥– في ظلال نهج البلاغة: ٦١.

كيف المرجعُ))[٦٦]، استهل الامام -عليه السلام- كلامه بخطاب الجميع (أيها الناس) لما فيه من سمة خطابية عالية لذا جاء تعمد الاتيان بعبارة (الناس) مقرونة بـ (أيها)، دعوة إلى حث (المنادى) بالتمسك بقيمتي الوفاء والصدق والأمر متروك للمتلقي ورؤاه.

ثم ينتقل الامام -عليه السلام- من نطاق الخطاب إلى نطاق التشبيه، فيقول: (إن الوفاء توأم الـ صدق)، والتوأم بمعنى الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معاً برابطة وثيقة[٦٧]، ومن هنا فقد شبه الامام -عليه السلام- قيمتي الوفاء والصدق بالتوأم، وهو تشبيه عقلي قد استوى فيه الطرفان المشبه والمشبه به، والمقصود بالعقلي، ما لا يدرك واحد منهما بالحس بل بالعقل، ولعل التمعن في مفهوم هاتين القيمتين ومصدرهما الفكري والاخلاقي يفيد أن الأمر كذلك، فالوفاء يضيء الالتزام بالعهد، وهو في الواقع نوع من الصدق، و أن الصدق نوع من الوفاء. والصدق ذو معنى واسع وشامل لا يقتصر على الحديث، ولذلك عدّ الامام -عليه السلام- مبدأ الصدق من القيم الخلقية المهمة التي يجب الالتزام بها في دائرة العلاقات الاجتماعية، فالصدق: (هو تطابق الكلام مع الواقع سواء كان الواقع الخارجي أو الباطني)[٦٨]، فهو يرمز إلى الطهارة في الذات والبعد عن الرذيلة، وله تأثير في جميع اعمال الانسان وسلوكياته لذا يشمل العمل ايضاً، ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلاً: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٦٩]، فمن الواضح أن المراد بـ صدق العهد في الآية هو الصدق في العمل، ولذلك أردفت بالقول: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾. ومن هنا تتضح عمق الرابطة بين قيمة الوفاء والـ صدق، ثم تطرق الامام إلى الآثار الايجابية لقيمة الوفاء بالعهد فقال: ((ولا أعلم جُنة أوقى منه))، فهذه في الواقع من أهم آثار قيمة الوفاء بالعهد وبركاته الدنيوية في أنه جُنة اي وقاية وثيقة، لأن أساس الحياة الاجتماعية يتمثل بالتعاون والتكافل والثقة المتبادلة والإلتزام بالعهود والمواثيق الفردية والاجتماعية.

وعوداً على ما سبق ذكره من أن الجنّة بمعنى الدرع الذي يقي أخطار العدو في ميدان القتال، فتشبيه قيمة الوفاء الخلقية بهذا الدرع يفيد كونه يشكل الوسيلة الدفاعية تجاه الأخطار الاجتماعية التي تفرزها حالة الفوضى وعرقلة القوانين والمقررات، فضلاً عن إظهار المعاني العقلية بصورة حسية ما يدفع المخاطب إلى الانتباه على التجميل، ومنه ايضاً وجه من أوجه كمال البيان[٧٠].

ثم أشار الامام -عليه السلام- إلى أبعاده المعنوية الاخروية، فقال: ((ولا يغدر من علم كيف المرجع))، ومن علم أن مرجعه إلى الله وهو سريع الحساب لا يمكن أن يعدل عن قيمة الوفاء الخلقية الموجبة إلى قيمة الغدر السالبة لها.

ولا يغيب عن بالنا (العدل) قيمةً خلقيةً عليا وأصلاً ثابتاً، يرمز إلى وضع الشيء بموضعه، فهو يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الناس من العبث والظلم والفساد، فربنا جلّ شأنه يشير إلى العدل -كأصل

٦٦- نهج البلاغة: ١/١١٥.
٦٧- لسان العرب، وثام: ٩/٣١٠.
٦٨- الأخلاق في القرآن، ناصر مكارم الشيرازي: ٣/١٨٦.
٦٩- سورة الأحزاب: الآية / ٢٣.
٧٠- ينظر: دينامية النص- تنظير وانجاز، د. محمد مفتاح: ١٥١.

أول– ويأمر به الانسان ليعرف أنه ليس الكائن الوحيد على وجه البسيطة، وليعرف أن للآخرين حقوقاً بذمته يتوجب عليه اداؤها، و له هو نفسه حقوق يتطلع إلى نيلها عن طريق اداء الآخرين لها إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾(٧١)، فالعدل من التقوى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(٧٢)، ولهذا تردد العدل في نهج البلاغة من مثل رسالته –عليه السلام– إلى عامله الأسود بن قطيبة بحلوان: ((أما بعد فإن الوالي اذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض من العدل...))(٧٣)، هنا حدد الامام –عليه السلام– مهمة الوالي بإقامة العدل والمساواة بين الرعية فاذا ما تقلبت اخلاق الوالي من حال إلى حال تبعاً لأهوائه وأطماعه، ضاعت الحقوق، وسادت الفوضى والبغي والفساد، واستحالت الحياة. ولا يقف الامام –عليه السلام– عند هذا الحد، بل يوجه عامله: ((فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء))، ساو بين الجميع في الحقوق والواجبات بلا تفضيل واختيار بين لون وجنس، وغني وفقير إلا بما يقدم المرء من عمل نافع للفرد أو المجتمع، ذلك كله إشعار منه لنا بأهمية اقامة العدل بين الناس لأنه سبيل لإحياء حقوق الفرد وضمان راحته وعزته ومن ثم تكون المساواة سبيلاً للايمان والترقي في مراتب الكمال.

و ألم نهج البلاغة بقيمة (الحق) قيمةً خُلقيةً عليا موجبة، وقد مضى الامام –عليه السلام– يتحدث عنها مبيناً الحقوق والواجبات المتبادلة بين الوالي والرعية، اذ يقول: ((... أيها الناس إن لي عليكم حقاً، ولكم عليَ حق، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم...))(٧٤). نجد هنا ان الامام –عليه السلام– قد حدد القيم الأخلاقية المتمثلة بحقوق الرعية: (النصح للرعية، وتوفير الفيء، وتعليم الرعية وتأديبها)، ذلك كله من حقوق الرعية على الخليفة، مما يؤدي إلى تربية الذات الانسانية لأفراد المجتمع وبنائها بناءً يقوم على المثل والقيم العليا وينأى بها عن الانحراف، إذ إن ذلك من شأنه أن يخلق مجتمعاً نموذجياً في أخلاقه وقيمه.

وبعد أن حدد الامام –عليه السلام– القيم الاخلاقية المتمثلة بحقوق الرعية أشار إلى القيم الاخلاقية المتمثلة بحقوق الخليفة: (الوفاء بالبيعة له، والتضحية في المشهد والمغيب، واجابة دعوة الخليفة، والطاعة)، وقد جاء بها بعد القيم الاخلاقية المتمثلة بحقوق الرعية، وعلة ذلك، لأن الخليفة جزء لا يتجزأ من المجتمع، ولأن الرعية هي سابقة على وجود الراعي.

لقد أجمل الامام –عليه السلام– في هذه الفقرة مبادئ الحق كافة، إذ ربط بين حق الرعية على الراعي وحقوقه عليها، مما ينم عن وجود نظرة ثاقبة لدى الامام –عليه السلام–، إذ كان يسعى إلى إقامة مجتمع تسوده الحقوق بين الرعية والراعي، لأن أي خلل في تلك الحقوق ينقلب إلى ظلم وجور وضياع.

٧١– سورة النحل: الآية/ ٩٠
٧٢– سورة المائدة: الآية/٨٠.
٧٣– نهج البلاغة: ٣/٦٠١.
٧٤– نهج البلاغة: ٣/٦٠٥.

المبحث الرابع: قيم روحية وإنسانية وأخلاقية تجري مجرى الحكم[٧٥]

حكمُ الامام علي –عليه السلام– من جوامع الكلام، وهي احدى الفضائل الانسانية، لأن هدفها الارتقاء بالنفس البشرية عن الوقوع في منزلقات المسأوئ، والخطايا، والعيوب، وتهذيب النفس، وإصلاح المجتمع، وحين التأمل والنظر نجد أنها تختص بمميزات أظهرها أنها تتحقق الحياة وتنعم بدفء الحرية، فهي لم تتقطع يوماً عن شخصية صاحبها، تتمثل تجربة وقعت له، أو حادثة اتصلت به، وإلى ذلك مردّ حياتها وبقائها. وهي إلى جانب ذلك، فلسفة روحية وانسانية واخلاقية تستند إلى الفضيلة بوصفها قيمة عليا موجبة تغرسها في نفوس الناس، وتكافح الرذيلة بوصفها قيمة سالبة وتدعو إلى استئصالها من الوجود في مجالات الحياة.

وحكمه –عليه السلام– تهدف إلى تحريك وجدان الانسان لملامسة عالم الفضيلة والكمال وتحرّي السلوك الانساني الأفضل في سيرته الحياتية قولاً، وممارسة، وتفكيراً. لذلك استوعبتها صدور الناس، وجرت على ألسنتهم وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل، ومن هنا، فهي معالجة جذرية للانحرافات الاجتماعية مبينة على نظر فلسفي عميق، وعلى نفاذ إلى مغزى الحياة الاجتماعية وفهم لحقيقتها وتطورها، لأنها صدرت من: (حكيم في طليعة حكماء العصور)[٧٦]، يُعد موجّها فعالاً نحو السلوك الحكيم، ولأنها لم تكن نابعة من التجربة الشخصية فحسب، بل تستند في مطلقها إلى أساس معرفي نابع من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وترجع قيمتها المعرفية إلى اشتمالها على كثير من مفردات العلم والمعرفة والإدراك كالذكر والعرفان، والعقل[٧٧].

وبناءً على هذه الحقيقة العلمية، نجد أن الخطاب الحكمي في نهج البلاغة بُني على أساس النظرية الاسلامية بوصفها المعين الرئيس الذي يمنح الامام –عليه السلام– افكاره منها، إذ جاء منسجماً معها في المبادئ، بل إن الامام –عليه السلام– استطاع ان يُعطي للمنهج الحكمي زخماً دافعاً لتطبيق تلك الحكم الساعية إلى صلاح الفرد والمتجمع، وهي بذلك رسمت منهجاً حياتياً متكاملاً ببعديه الديني والدنيوي، حتى أصبح اكثرها مثلاً سائداً على مر الاجيال والعصور، اتخذها قواعد للاخلاق الفاضلة، ومعياراً للسلوك القويم، لأنها تحوي معاني ودلالات بليغة، ذات أهداف تربوية واجتماعية واصلاحية، وعلى هذا الأساس سنقف في هذا المبحث محددين القيم التي تجري مجرى الحكم في نهجه، وهذا ما لمسناه في قوله –عليه السلام–، وهو يدعو إلى قيم روحية عليا: (الصلاة قُربان كُل تقي والحج جهاد كل ضعيف، ولكل شيء زكاة، وزكاة البدن الصيام)[٧٨]، وإذا نظرنا إلى حكم الامام –عليه السلام– وجدناها تدعو إلى مجموعة من القيم الروحية العليا وهي تجري مجرى الحكم: (الصلاة، والحج، والصيام) ذات الصبغة الدينية التي تتضمن توجيهاً صريحاً في الحث على الإلتزام بهذه القيم بوصفها من الفرائض، فالحكمة النفسية التي تظهر لنا من قيمة الصلاة

٧٥– هي: (عصارة خبرة في الحياة وفهم لأسرارها يُدبجها ذهن ذكي فطن)، الامثال العربية القديمة والعصر الجاهلي، محمد توفيق: ٤٨.
أو هي: (الكلام القائم على العلم والموجه إلى الصواب والسداد في القول والفعل)، الحكم والامثال، حنا الفاخوري: ٨.
٧٦– الامام علي صوت العدالة الانسانية: ٧٩٩.
٧٧– ينظر: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي: ٢٥٩/٢.
٧٨– نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ٦٥٨/٤.

تتمثل بالصلي المتقي الذي يقبل على الله بقلبه وكيانه، لقوة شعوره بالحاجة إلى الله ورحمته، لأن الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها وتوجه لها إلى الله بالذكر والدعاء، والخضوع لكبريائه وعظمته، وهذا من شانه أن يضفي على النفس السكينة والرضا، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة فتتجدد قواها الروحية.

وأما الصوم فقيمة روحية عليا قائمة على الضبط النفسي والاخلاقي، وبذلك يتعدى في مفهومه الامتناع عن المأكل والمشرب، فهو تهذيب للنفس، وتقويم لها بالامتناع عن كل ما يكرهه الله سبحانه وتعالى.

وأما الحج فقيمة روحية تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام، فهو من الجهاد أو شبيه به يوم كان الحجاج يقطعون الصحراء على الدواب والجمال، ويعانون آلام البرد والحر، والجوع والعطش، والخوف على النفس والمال، فضلاً عن اعماله التي تؤدى مع عناء ومشقة لبعد الشقة وعظم المسافة، وخصوصاً إذ نأت الجهات عن أماكنه المقدمة.

ولم تقتصر قيمه الروحية –عليه السلام– على ما ذكرنا، بل تعدتها إلى العبادات الاخرى التي تُعد من الروابط المثبتة بين الخالق والمخلوق، ومن ذلك قوله: (سُوسُوا إيمانكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء)[٧٩]، بدأ الامام –عليه السلام– قيمه الروحية التي تجري مجرى الحكم (الصدقة، والزكاة، والدعاء) بأفعال الأمر (سُوسُوا، وحصنوا، وادفعوا)، على وجه الإلزام والتشديد المتمثل بالزكاة التي تعد ركناً أساسياً من اركان الاسلام، ووسيلة من وسائل المؤمن للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فضلاً عما تحدثه من تطهير النفس من الرذائل، ودفع البلاء بالدعاء بوصفه روح العبادة، ولما فيه من الدلالة على الشعور بالحاجة إلى الله تعالى والتعلق به، وبهذا تكون الطاقة الإلزامية واضحة المعالم في ضرورة الانصياع لتفعيل هذه القيم، لدلالتها الواضحة على توجيه الأمر على نحو بارز، فجاءت قيمه الروحية –عليه السلام– لتسهم في بناء المجتمع بناءً دينياً وروحياً وفكرياً. ونبه الامام –عليه السلام– الناس على مراعاة (التقوى) في السر بوصفها قيمة روحية مُثلى قائلاً: ((إتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم))[٨٠]، ينصح الامام –عليه السلام– هنا الإلتزام بمبدأ التقوى حتى في لحظات الخلوة والانفراد، لأن الله سبحانه وتعالى هو الرقيب الذي لا يخفى عنه شيء فهو الشاهد الحاكم، موظفاً صيغة فعل الأمر (إتقوا) بدلالتها غير المباشرة على ايصال المعنى. وبهذا الاسلوب يأخذ الامام –عليه السلام– دوره الاصلاحي في التربية الذاتية والنفسية للمجتمع، ولا يخفى علينا ما للعبادة بوصفها قيمة روحية عليا، والغاية الكبرى من الخلق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٨١]، فما كان منه –عليه السلام– إلا أن يُشير موجها إلى أساسيات العبادة ودعائمها، فوجدناها على وفق رؤية الامام –عليه السلام–، وقد قامت على الإلتزام بأداء الفراض التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على عباده: (لا عبادة كأداء الفرائض)[٨٢] فضلاً عن قيم روحية

٧٩– نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ٤/٦٥٩.
٨٠– م ن: ٤/٧٠٠.
٨١– سورة الذاريات، الآية: ٥٦
٨٢– نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ٤/٦٥١.

أخرى حددها الامام –عليه السلام– بوساطة قيمه التي تجري مجرى الحكم كالزهد[٨٣]، والمعاد[٨٤]، والتوبة[٨٥]، والاسلام[٨٦]، والجهاد[٨٧]، والثواب[٨٨]، والحق[٨٩].

لقد بين الامام –عليه السلام– عبر قيمه الروحية التي تجري مجرى الحكم بكل وضوح كثيراً من الأهداف والغايات الاسلامية الداعية إلى ضرورة الالتزام بالمنهج الروحي في حياة الفرد، وعمل بوساطتها على توثيق الصلة بين الانسان وخالقه من جانب، وصلته بسواه من البشر من جانب آخر، وحثه على تطبيق تلك القيم كما جاءت في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

وإذا مضينا نبحث عن القيم الانسانية التي تجري مجرى الحكم في نهج البلاغة وجدناها تدعو إلى التحرر من الرذائل والفواحش، وتأمر بالتمسك بالقيم الانسانية النبيلة، وتعمل على ترسيخ مبادئ الخير والمحبة والوئام والحرية، وتهدف إلى تهذيب العواطف. لذا جاءت لترفع من شأن المسلم اجتماعياً، وعقلياً، وروحياً، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته، وهذه المسألة تبدو اكثر وضوحا من خلال ادراكنا لمبدأ (الحرية) بوصفها قيمة انسانية عليا في قوله –عليه السلام–: ((لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً))[٩٠]، توجيهاً صريحاً إلى من يريد أن يشق بنفسه، ويستشعر روح الحرية ومعناها، فألقى في نفسه ما يوقظه على اصل من اصول وجوده، وهو: أن الله جعله حرّاً لا يتمرد ولا يطيع، ولا يعمل ولا يقول إلا على أساس من هذا الحق الطبيعي، وتحذيراً من كل ما من شأنه أن يضيق عليه ويسلبه حقه في ان يكون حراً، وفي هذا التوجيه الذي يوجهه اعتراف اصيل بأن الناس احرار في المولد والمنشأ لا قسر يجوز عليهم ولا إكراه[٩١]، ولم يقف –عليه السلام– في منهجه القيمي الانساني عند حدود الحرية، بل نراه يُعرج على قيمة انسانية اخرى تجري مجرى الحكم، وتعد من أهم القيم الانسانية التي أُسس عليها المجتمع المسلم ألا وهي (الأخوة الإسلامية)، فيحدد –عليه السلام– لنا منهجاً في الاستعتاب قائلاً: ((عاتب أخاك بالاحسان إليه، واردد شره بالأنعام عليه))[٩٢]، مشيراً إلى اهمية مراعاة الإحسان اليه بدل عتابه بالقول والفعل، ومن ثم الإنعام اليه، وبذلك تصفو القلوب، وتزول الضغينة، امام الإحسان.

وإذا كانت الاخوة هي الرابطة الاجتماعية الوثيقة التي تربط أفراد المجتمع المسلم، فإن هنالك وجهاً آخر من وجوه الاخوة لا يقل قيمة، بل يتفوق احياناً وهو (الصداقة)،

لذا لم يغفل الامام –عليه السلام– أمرها، فدعا إلى نشر هذه القيمة الانسانية السامية بين المجتمع، واضعاً لها الأسس الصالحة لممارستها بما يكفل الديمومة والاستمرار، فجاءت حكمته: ((لا يكون الصديق صديقاً

٨٣– ينظر: م ن: ٦٣١/٤.
٨٤– م ن: ٦٣٧/٤.
٨٥– م ن: ٧١٠/٤.
٨٦– م ن: ٧١٠/٤.
٨٧– م. ن: ٦٨٠/٤.
٨٨– م. ن: ٦٥١/٤.
٨٩– م. ن: ٦٨٨/٤.
٩٠– نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ٣٦٩/١٨.
٩١– ينظر: الامام علي صوت العدالة الانسانية: ٢٣٧.
٩٢– نهج البلاغة، شرح ابن ميثم البحراني: ٤٠١/٥.

حتى يحفظ أخاهُ في ثلاثٍ: في نكبته، وغيبته، ووفاته))[٩٣]، يضع لنا الامام حداً كاملاً لل صديق، فال صديق في نظره هو من يشارك صديقه آلامه، ويواسيه بنفسه، ويدافع عنه في غيبته، وأن يذكره بخير حياً كان أو ميتاً.

وننتقل مع حكم الامام علي –عليه السلام– إلى القيم الأخلاقية التي حث عليها الاسلام م صداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَ ْصفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٩٤]، فنراه يدعو إلى العفو عن الاساءة مع الأعداء مخاطباً روح الانسان وكيانه الإنساني قائلاً: ((اذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شُكراً للقدرة عليه))[٩٥]، على الرغم من أن الظفر بالعدو والقدرة عليه هي اللحظة التي يتمناها الانسان، ولكن الامام –عليه السلام– جعل العفو عنه في تلك اللحظة ارتقاء بالنفس إلى اعلى درجات الانسانية والنبل.

على أننا نستطيع أن نرصد مظهراً آخر من مظاهر القيم الاخلاقية متمثلاً بقوله –عليه السلام–: (من كفارات الذنوب العظام، إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب)[٩٦]، يوجز الامام –عليه السلام– الدعوة إلى إغاثة الملهوف بوصفها احدى الوسائل التي تكفر الذنوب وتمحوها، وهي ايضاً جزء لا يتجزأ من الاخلاق الانسانية الفاضلة التي يستطيع بوساطتها الفرد نيل محبة الناس ومودتهم، ولا يخفى ما لحسن الخلق من أهمية كبيرة بين الفضائل الاخلاقية، إذ انه (ملاك الفضائل ونظام عقدها) [٩٧] لذا نجد الامام – عليه السلام– يؤكد هذه الفضيلة الأخلاقية، لأنها تمثل وجهاً من وجوه الرقي الأخلاقي في التعامل مع الآخرين، اذ يقول–عليه السلام–: ((خالطوا الناس مخالطة إن مُتم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم))[٩٨]، إذ ان التحلي بحسن الخلق في التعامل مع الناس في نظر الامام –عليه السلام– يجعل الانسان يسمو به حياً ويخلده ميتاً.

من الواضح ان الامام –عليه السلام– يُعنى عناية شديدة بأسلوب الشرط، ومن ادوات هذا الاسلوب التي استعان بها في اعلاه (اذا، وإن) وهما للشرط في الاستقبال فهو بهذا الاسلوب أكد احساسه العميق بأن للقيم الاخلاقية ينبغي ان تُذاع ويعرفها الكل.

ولو أردنا أن نأتي ما قيل عن القيم الروحية والانسانية والاخلاقية التي تجري مجرى الحكم في نهج البلاغة لطال بنا المقام وحسبنا ما ذكرناه شهادة وبرهانا [٩٩].

٩٣– نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ٤٦٣/١٨.
٩٤– سورة التغابن، الآية: ١٤.
٩٥– نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ٢٨٦/١٨.
٩٦– م. ن: ٢٨٨/١٨.
٩٧– أخلاق اهل البيت، مهدي الصدر: ٩.
٩٨– شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد عبده: ٦٢٨/٤.
٩٩– ولغرض الاستزاده ينظر ايضاً: نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ج٦٤٤/٤، ٦٤٥/٤، ٦٤٥/٤، ٦٥٢/٤، ٦٥٤/٤، ٦٥٨/٤، ٦٦٦/٤، ٦٦٨/٤، ٦٧١/٤، ٦٧٣/٤، ٦٧٤/٤، ٦٧٥/٤، ٨٢٦/٤، ٦٢٧/٤، ٦٣٨/٤، ونهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ١٤٦/١٩، ٤٢٤/٢٠، ٢٨/١٩، ٣٤٩/١٨، ٤٠١/١٨، ٣٠٣/١٦، ٢١٠/١٩، ٤٦٥/١٨، ٣٥٤/٢، ٢١١/١٩، ٥٢٦/١٨، ٢٦/١٧، ٢٤١/١٩، ٥٢٩/١٨، ٢١٩/١٩، ٦٩/١٩، ٤٧٤/١٨، ٤٠٠/١٨، ١١٣/٤، ٥٥٥/٢٠، ٥١٥/١٨، ٤٦١/١٨، ١٤٥/١٩، ٤٦٧/١٨، ٤٢٤/٢٠.

الخاتمة

بعد أن منّ الله تعالى علينا بإتمام هذه الدراسة، لا بد من الاشارة إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها في رحلتنا مع القيم الروحية والانسانية والأخلاقية التي تجري مجرى الحكم في نهج البلاغة وهي:

– تبين من خلال البحث أن القيم الروحية والانسانية والأخلاقية في نهج البلاغة تستند إلى أساس معرفي نابع من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مما جعلها تتعدى إطار التجربة الشخصية إلى قيم عامة جاءت معبرة عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ومبادئ الشريعة السامية إلى اصلاح الفرد والمجتمع.

– كشف البحث عن أن القيم في نهج البلاغة جاءت موجهة، ويمكن القول إنها قد رسمت منهجاً حياتياً متكاملاً ببعديه الديني والدنيوي، وذلك من خلال مقاصدها المتنوعة بتشعباتها الدقيقة، فلم يترك النهج جانباً من جوانب الحياة إلا وأنجز فيه الحديث بقيمة من القيم تنظيماً له وتوجيهاً.

– ظهر أن القيم التي جرت مجرى الحكم في النهج لم تصدر عن العدم، ولم تخلق في فراغ، وإنما يؤكدها الوجود القيمي، إذ نشأت عن التجارب التي مضت وانقضت، لذلك استوعبتها صدور الناس، وجرت على ألسنتهم وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل.

– أتضح لنا أن نهج البلاغة سبق الاعلان العالمي لحقوق الانسان والحيوان بأكثر من ألف سنة ويزيد.

– ظهر ان قيم النهج تفصح عن شخصية الامام علي –عليه السلام– حتى لكأنَّ معانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه بالذات، تقوده عقيدته إلى الحرص الشديد عليها. فيمارسها ويدعو إلى ممارستها بيقين لا يتزعزع.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. أخلاق أهل البيت، مهدي الصدر، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٨م.
٢. الأخلاق في القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، مكتبة الجيل الشباب، قم، ايران، ٢٠٠١م.
٣. أخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة– مصر، ١٤١٨هـ.
٤. أعجاز القرآن، الباقلاني، ابو بكر محمد بن الطيب، (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: احمد صقر، دار المعارف بمصر، (د. ت).
٥. الامام علي سيرته الذاتية وفكره الحضاري، عبد الحميد المهاجر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٢م.
٦. الأمام علي صوت العدالة، جورج جُرداق، إختصره وحققه حسن حميد السّنيد، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.
٧. الأمثال العربية القديمة والعصر الجاهلي، محمد توفيق، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٨م.
٨. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
٩. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، د. إبراهيم سلامة، مطبعة مخيمر، القاهرة، ١٩٥٢م.
١٠. البيان والتبيين، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

١١. تأصيل النص، قراءة في ايديولوجية التناص، د. مشتاق عباس معن، ط١، الناشر مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ٢٠٠٣م.
١٢. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه (ت٤٢١هـ)، مطبعة الترقي، مصر، ١٣١٧هـ.
١٣. الحكمة في الشعر العربي قبل الاسلام، ابراهيم علي شاكر، ط١، مطبعة الطيف، بغداد، ٢٠٠٨م.
١٤. الحكم والأمثال، حنا الفاخوري، دار المعارف، (د. ط)، (د. ت).
١٥. دراسات نفسية، تربوية، اجتماعية، د. عبدة علي الجسماني، مركز عبادي للطباعة والنشر، صنعاء، ٢٠٠٢م.
١٦. دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه، محمد محمود شاكر،، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٧. دينامية النص، تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
١٨. رسالة الأديب إلى الحياة العربية، مي زيادة، مطبعة الكشاف، بيروت، ١٩٣٨م.
١٩. روح الدين الاسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة، ط٤، مطبعة الجهاد، بيروت، ١٩٦٠م.
٢٠. الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا ٣٩٥هـ، مطبعة المؤيد، ١٤١٠هـ.
٢١. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن أبي عبد الله البخاري (ت٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير للصحافة، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٢. طرق تنمية الالفاظ، د. إبراهيم أنيس، النهضة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٣. فواتح سور القرآن، د. حسين نصار، ط١، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ٢٠٠٢م.
٢٤. في ظلال الصحيفة السجادية، محمد جواد مُغنية، تحقيق: سامي الغزيري، ط١، مؤسسة دار الكتاب الاسلامي، قم، ٢٠٠٢م.
٢٥. في ظلال نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد جواد مُغنية، دار التيار، منشورات الرضا، بيروت، ٢٠١٣م.
٢٦. قراءة لغوية ونقدية في الـ صحيفة السجادية، د. كريم حسين الخالدي، ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠م.
٢٧. القرآنية في شعر الرواد، د. إحسان الشيخ حاجم، ط١، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠١٣م.
٢٨. قضايا علم الأخلاق، قباري محمد اسماعيل، ط٢، الهيئة المصرية الجامعة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م.
٢٩. لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم (ت٧١١هـ)، تحقيق: علي شيري، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.
٣٠. المنهج السياسي عند الامام علي –عليه السلام–، تقديم: محمد حسين فضل الله، ط١، دار الأمير، بيروت، ١٩٩٦م.
٣١. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ط٢، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٨٩هـ.
٣٢. النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، د. عبد الكريم بلبع، ط١، مطبعة لجان البيان العربي، ١٩٦٩م.

٣٣. نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، (د. ط)، بيروت، ٢٠٠٨م.
٣٤. نهج البلاغة، شرح ابن ميثم البحراني، ط١، مطبعة وفا، ايران، ١٤٢٧هـ.
٣٥. نهج البلاغة، شرح الامام الأكبر الشيخ محمد عبده، خرّج مصادره الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ٢٠٠٣م.

المجلات:

١. دور الإعلام في ترسيخ القيم الاجتماعية، مأمون الجنان، مجلة المعرفية، وزارة الثقافة، سوريا، العدد/٥٢٧، آب، ٢٠٠٧م.
٢. قيم جديدة، د. سليمان إبراهيم العسكري، مجلة العربي، الكويت، العدد ٥١٧، ٢٠٠١م.